

# في الذكرى الثانية والثلاثين لاستشهاده غسان كنفاني ثورة في انسان

في الذكرى الثانية والثلاثين لاستشهاد غسان .. الانسان .. المناضل .. القائد الكاتب الاديب .. المفكر المبدع الفنان .. لا نتذكره .. فلقد كان دائماً معنا .. خاض معاركنا جميعها منذ غاب . كان حضوره مكثفاً في اللحظات التي لا بد فيها من دق جدار الخزان .. ويمكن القول انه من القلائل الذين امتلكوا وبجدارة ناصيتي القلم والسيف، وخاضوا الحرب المركبة، وتأقلموا ذاتياً مع الموضوع، وموضوعياً مع الذات، فحققوا التوازن الجدلي بين السياسي المناضل، وبين الاديب الفنان. كان التناوب اللحظي في انتاجه وابداعه الفكري والادبي ينقله وبثقة ورصانة، دونما انفصام او تبعثر، من محطات انعكاس الواقع الموضوعي على ذاته، احساساً او ادراكاً، الى لحظات يعبر فيها حدسه متجاوزاً الذات ومظاهر الاشياء الى عمق الجوهر .

كان بحكم موقعه المتميز في الساحة الفلسطينية شهيداً عظيماً من شهداء فلسطين، الذين تجاوزت اسمائهم انتماءهم التنظيمي .. فما من مهرجان تآبين او ذكرى لشهيد الا وكان ذكر اسم الشهيد غسان كنفاني جزءاً لا يتجزأ من مراسم العرس الفلسطيني.

ما الذي تميز به غسان كنفاني حتى يؤكد حضوره بهذا الزخم الفلسطيني هل نقول المعرفة؟ .. وهنا نوكد .. ان غسان كنفاني هو احد القلائل الذين تعرفهم جماهير فلسطين دون ان تراهم . لقد نحت غسان للجماهير صورته ومشاعره وتخيلاته وآلامه وآماله باشكال واساليب مختلفة، فلا يستطيع حتى اللامبالي ان يهرب من طيف غسان الذي يعانق الجميع . لقد نحت لهم ايضاً صورتهم ومشاريعهم وتخيلاتهم وآلامهم

وأمالهم كجزء من ذاته، فتوحد فيهم وأصبح جزءاً لا يتجزأ منهم، ولا يمكن له ان يغيب. ولكي يعمق غسان معرفة الناس به، عشق المعرفة وتسلىح بمنهجها الثوري .

بدأ يتعلم من التجربة الانسانية ونهل من معين ابداعات عظماء الفنانين والادباء . واكتشف اول ما اكتشف، ذلك الدور العظيم الذي يلعبه الادب في اعادة تكوين الذات الانسانية وبلورتها، بحيث تأكد من ان ما يمكن ان يغير فيه هو كفرد. يمكن ان يغير في الآخرين كمجتمع .. وبالتالي يمكن ان يلعب دوراً جدياً في تغير الواقع الفاسد الذي تعيشه الجماهير، والذي تستلب فيه الكرامة والحرية والارض للوصول الى الواقع المنشود، الذي تسود فيه الديمقراطية والحرية و الاستقلال.

لقد ادرك الشهيد غسان مبكراً التكامل والتمايز بين المجتمعات البشرية وطبيعة التقويم الموضوعي للواقع، والمراحل النضالية والثورية، ومتطلبات كل مرحلة . وادرك ان التجارب النسانية لا يمكن استنساخها وتطبيقها خارج سياق خصوصية المرحلة والواقع في الزمان والمكان. ليقطف من الخاص ما يتلاءم مع خصوصية التجربة النضالية لفلسطين. فحين صاغ روايته ام سعد، كانت صورة الام في رواية مكسيم غوركي مرسومة في مخيلته . ولكنه ادرك الفارق الكبير بين نمو شخصية الام وتطورها في الثورة الاشتراكية التي تنطلق على ارضها للتخلص من الاستغلال الطبقي، وبين شخصية الام الفلسطينية المشردة من وطنها المغتصب والتي عليها لكي تكون ثورية ان تمتلك قناعتين اساسيتين، الاولى : الايمان المطلق بحتمية النصر . والثانية: الاستعداد الدائم للتضحية. كانت ام سعد نموذجاً جاهزاً صقلته الاحداث ليقدمه غسان دون ان يرهق نفسه في ملاحقة التطور والنمو لشخصيتها . فما دامت الثورة قد انطلقت، وما دام الكفاح المسلح قد ابتدأ، فالشخصية المقاتلة قد اكتملت نفسياً في الضمير الفلسطيني .

كانت الحركة احد السمات البارزة في شخصية غسان الديناميكي

الذي فهم معنى التطور بوعي طليعي استطاع عبره ان يرى الواقع في حالته المتحركة . مدركاً طبيعة التناقض القائم بين الاطراف المختلفة . مكتشفاً جوهره ومظاهره نافذاً الى جوهر التطور الفعلي لعملية الصراع من لحظة السكون القاتل في قلب خزان ( رجال الشمس ) الى التوهج الحاضر المقاتل في ( ام سعد ) الى انتصار المستقبل الايجابي الذي اختاره خالد ليعود الى حيفا التي لم يشاهدها ولكنها تستحق ان يناضل وان يستشهد من اجلها .

كان التطور الموضوعي عند غسان انعكاساً عن حالة تطور ذاتي يعيشها بكل ما فيها من معاناة وفرح . كان يصرع الموت بتجاهله، ويعيش معه حالة نفي النفي ليؤكد وجوده . وكان يسابق الزمن في انتاج اللحظة التي تغزوه، وبالشكل الذي تقتضيه الضرورة، مؤمناً ان الكيف الذي يطمح اليه سيكون نتيجة حتمية للتراكم الكمي الذي يبده .

وكما تغير ذاتياً نتيجة تأثره بابداعات الكتاب والشعراء والرسامين والموسيقيين والمفكرين السياسيين . كان يشعر انه قادر على احداث التغيير في الآخرين . ويدرك ايضاً، ان كل الاسلحة ضرورية في خوض المعركة الشاملة. فكما كانت الشمولية المتعددة لجوانب مصدر معرفته .. كانت شمولية ابداعه، كنانته المليئة بالسهام المتعددة الخواص. فسهم المقالة السياسية والافتتاحية والقصة القصيرة والرواية واللوحة والملصق والغلاف، كلها تنبع من معين واحد لتنتقل نحو هدف واحد هو تحرير فلسطين . ولم يعد غسان كنفاني وحده كافياً ليغطي هذه المسألة الشاسعة من المعركة الشاملة التي تخوضها ثورة جامعة في جسد انسان رقيق مرهف. كان لد بد له من اللجوء الى اسماء حركية يوقع بها على السهام ليشكل من حركيته جيشه الخاص الذي يقاتل على كل الجبهات .

اليس هذا كافياً حتى يكون حضوره معنا اليوم وكما كان دائماً منذ استشهاده والى ان تعود عكا .

اليس حضوره المستقبلي المضيء احد ضرورات السير في عتمة

الطرق الملتوية والممرات الاجبارية التي تحاول تجريد المبادئ من صلابتها .

ان شمس الادب الثوري تسطع باستمرار . متمسكة بالمبادئ الصلبة. وان علاقتها الجدلية مع السياسة تنعكس على اقمار تستمرى مرونة الانعكاس من طلائع البدر الى اعماق المحاق .  
فلتكن ذكراه شمساً ساطعة مع الحق والمبادئ حتى النصر ..الى الابد.

صخر حبش (ابو نزار )